الجـــاحظ

لا يزال تاريخ ميلاد الجاحظ مجهولا حتى يومنا هذا ، وبعض الباحثين يرجحون أنه ولد ما بين سنة ١٥٨ و سنة ١٥٩ هـ . وقد امتدت حياة الجاحظ امتداداً طويلا فطوى من عمر الزمان ٩٦ سنة وتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

وقد ولد الجاحظ من أبوين فقيرين ، وذكر بعض المؤرخين أنه شوهد يبيع الخبز والسمك فى « سيحان » أحد روافد شط العرب . ونشأة الجاحظ الأولى مجهولة ولا تكاد تعرف عنها شيئاً . كما أن معلوماتنا عن أسرته قليلة ولا نكاد نعرف عنها شيئا ، سوى أن أمه هى التى كانت ترعاه . وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى أنه فقد أباه وهو صغير .

وقد نشأ الجاحظ شغوفا بالقراءة شغفا شديداً ، ويقولون إنه لم يكن يقع فى يده كتاب فى أى موضوع من الموضوعات إلا ويقرأه من أوله إلى آخره ، وقد عرف عنه أنه كان يؤجر المكتبات طوال الليل للقراءة والاطلاع .

وثقافة الجاحظ مزيج ، فقد تثقف بالثقافة العربية على أيدى أشهر علماء البصرة ، كما تثقف بالثقافة اليونانية على أيدى المعتزلة . وهم المفكرون الأحرار فى الإسلام كما يسميهم المستشرقون ، إذ أن المعروف عن المعتزلة شدة اتصالهم بالثقافة اليونانية . كما تثقف الجاحظ بالثقافة الفارسية عن طريق ابن المقفع . وقد وهب الجاحظ حياته كلها للتأليف ، ولم يقيد نفسه بأى عمل آخر حتى ألف مجموعة كبيرة من الكتب بلغ عددها أكثر من ١٧٠ كتابا ويبدو أن مما ساعده على ذلك عمره الطويل ؛ واضطراره إلى ملازمة بيته بسبب المرض ، إذ أصيب الجاحظ بالشلل سنوات طويلة ، كما أصيب بالنقرس فى أواخر أيامه ، وهكذا تكاثرت العلل على الأديب العظيم واضطرته إلى ملازمة بيته ، فأخذ يشغل أوقاته بالقراءة والتأليف ، حتى سقطت عليه الكتب وهو فى بيته فى بغداد فقضت عليه ، وهكذا ذهب الجاحظ ضحية الكتب التى يذكر عنها فى كتابه الحيوان « أنها أعز أصدقائه وأحبهم إليه » .

وقد رأينا أن الجاحظ عاش حوالى قرن من الزمان عاصر فيه اثنى عشر خليفة من خلفاء العباسيين ، وأدرك أزهى عصور الدولة العباسية سواء من الناحية السياسية أو الناحية العلمية . فكان لهذه الحياة الطويلة التى عاشها الجاحظ تأثيراً قويا فى تكوين عقليته وثقافته . فقد مر فى خلالها بأدوار مختلفة طبعت شخصية الجاحظ بألوانها

— لا عليك يا محسن ... أبوك أعرف الناس بمصلحتك

— ولكن لماذا لا يمنع الآباء الآخرون أبناءهم من الخروج ؟ ... ألا يعرفون مصلحة أبنائهم ؟ ...

— إنهم يعرفونها ولا شك ... ولكن لكل أب طريقة فى تربية أبنائه .

— ولكن لماذا يضربنى هكذا بقسوة ؟ ... إن الآباء الآخرين لا يضربون أبناءهم بهذا العنف ... لا شك أنه يكرهنى ... وأنا أكرهه أيضاً ... أكرهه من كل قلبى ...

— لا يا محسن ... لا ينبغى أن أسمع منك هذا الكلام ... فإن هذا أبوك ويجب أن تطيعه ... فقد أمرنا الله بطاعتهم

— حتى ولو ظلمونا ؟

— يجب أن تطيع أباك قبل كل شىء ... لأنك بذلك تكسب مرضاة الله .

— وهل يرضى الله عن ظلم أبى ؟

— إن الله لا يرضى عن الظلم أياً كان مصدره .

— وماذا يفعل الله بالظالم ؟

— يعاقبه جزاء ظلمه ...

— إذن لماذا لم يعاقب أبى ؟ ! !

— إنك تتعجل العقاب يا محسن ... إن العقاب لا يكون فى الدنيا بل فى الآخرة ...

وبدا على محيا محسن سيماء الحيرة والتفكير ، فسار الاثنان صامتين وراح محسن يفكر فيما قاله صاحبه ، ووصلا أخيراً البيت فودع عزيز صاحبه وسار فى طريقه ، ودخل محسن البيت وكأنه مقبل على سجن ...

« يتبع »

على زكريا

المختلفة ، فقد ولد فقيراً فأحس بؤس الفقراء ، ثم اتصل بالوزراء والأمراء فعرف أخلاقهم وآدابهم وتقاليدهم ، ثم جمع مالا كثيراً فعرف الحياة الارستقراطية ، وطاف بكثير من البلدان فعرف طبائع البشر واختلاف أساليبهم فى الحياة .

ويمتاز الجاحظ بأسلوب متدفق فياض لا التواء فيه ولا دوران حول معانيه . ويمتاز كذلك أسلوبه بالفكاهة والسخرية . والطابع العام لأسلوب الجاحظ هو العناية بالألفاظ والمعانى بنسبة واحدة ، فهو يعنى بألفاظه بقدر ما يعنى بمعانيه . ويمتاز أسلوب الجاحظ كذلك بخصائص فنية منها الواقعية ، فقد كان الجاحظ مشغوفا بتصوير الواقع كما يراه فى الحياة ، وكان يرسم صورة دقيقة واقعية لكل ما يدور فى عصره من حياة اجتماعية أو سياسية أو أدبية ، دون أن يجد الجاحظ فى ذلك أى حرج أو خجل من ذكر الحقائق الواقعية كما يراها بما فيها من محاسن ومساوىء . وهو يفعل ذلك فى صراحة مكشوفة ، فكانت كتب الجاحظ ورسائله تمثل جوانب العصر الذى عاش فيه ؛ وبخاصة الجانب الاجتماعى بكل مافيه من وجد ولهو ، ومن دين وزندقة . ومن الخصائص الفنية فى أسلوب الجاحظ الاستطراد . فقد كان لا يقف عند الموضوع الواحد الذى يكتب فيه ، وإنما ينتقل من موضوع إلى آخر ، ثم يعود إلى الموضوع الأول ، ثم ينتقل إلى موضوع آخر . أى أن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد ، وكان الجاحظ يريد أن يبعد الملل عن قراء كتبه بهذا الاستطراد .

ومن الخصائص الفنية لأسلوب الجاحظ التنغيم الصوتى فقد كان الجاحظ حريصا على أداء معانيه فى عبارات تتساوى من حيث النغمة الموسيقية . فكل عبارة من عبارات الجاحظ تساوى العبارة التالية من الناحية الصوتية ، ويعتمد التنغيم الصوتى فى أسلوبه على أساسين : أساس موسيقى وأساس لفظى . فأما الأساس الموسيقى فإن الجاحظ كان يجعل عباراته المختلفة متساوية من ناحية نغمتها الموسيقية ، حتى يبدو للقارىء أن الجاحظ لا يكتب نثراً وإنما يؤلف ألحاناً موسيقية . وأما الأساس اللفظى فهو التكرار والترادف ، فقد كان يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة . وكذلك من خصائص أسلوب الجاحظ الفنية ، التلوين العقلى ، فقد كان يعتمد على المنطق اعتماماً واضحاً ، فيصطنع الأسلوب المنطقى فى كتاباته ، فيقيمها على أساس المقدمات والنتائج والبراهين والأدلة . وكان الجاحظ يعتمد أحياناً على المغالطة والسفسطة .

والخلاصة أن الجاحظ يعتبر أعظم الكتاب الذين ظهروا فى تاريخ النثر العربى حتى يومنا هذا ، وأنه استطاع أن يخطو بالكتابة الفنية عند العرب خطوة واسعة إلى الإمام ، حتى أصبح صاحب مدرسة أسلوبية مميزة ، آمن بها كثير من الكتاب بعده وتأثروا بها ، ولعل أشهر هؤلاء هو الدكتور طه حسين ، حتى أصبح من السهل التعرف على أسلوب الجاحظ من بين سائر الأساليب العربية .

فيصل صالح مطوع

الأرصـــدة البترولية

بقية المنشور على صفحة ٢٠

راقية ، وبهذه الوسيلة يمكن أن تضاهى (سويسرا) من حيث الجمال والروعة ، ويمكن مد المياه ليس للشرب فقط بل للزراعة ، وتستطيع الحكومة أن تقدم مختلف الخدمات المتعددة الجزيلة للأفراد ، كنشر الضمان الاجتماعى ، ورفع رواتب الموظفين ، ومساهمتها بدفع جزء من أثمان مختلف السلع ، فعليها أن تبيع السلع بأقل من أسعارها ، وتتحمل الخسارة ، وتتوسع فى تقديم الخدمات الغير مباشرة ؛ كالتعليم والصحة وتشجيع إنشاء المصانع والشركات .. لقد ذكر الأستاذ هذه الآراء لاعلى أساس أحلام وتصورات ، بل دعم آراءه على أساس علمى دقيق . فالدخل كبير جداً بالنسبة لعدد السكان ، ولقد ذكر لى الأستاذ أنه لايطالب بتنفيذ ما أشار به خلال سنة واحدة ، بل بوضع عدة مشروعات مدروسة يتم تنفيذها بعد عدة سنوات ...

خالد على الحرانى